

شوقى ضيف

سيرة عالم... ومسيرة إنسان

د. طه وادى

(١)

شوقى ضيف عالم موسوعى جليل، وأستاذ جامعى رصين، يندر أن تجد مثيلاً له فى جيله: عطاء وثناء وحسن خلق، ولا تعود أهميته إلى كثرة ما أُلّف فحسب، بل إنه أيضاً أستاذ لأجيالٍ مختلفة من أساتذة الأدب واللغة، على امتداد الوطن العربى كله، ومن لم يتلمذ على يديه تلمذة مباشرة فى قاعات الدرس ورسائل البحث، فقد تتلمذ على كتبه ودراساته - التى تكاد تستوعب معظم مجالات التراث العربى: فى إطار الدراسات الأدبية واللغوية والبلاغية، والنقدية والإسلامية وتحقيق التراث.

وقد ولد أحمد شوقى بن الشيخ عبد السلام ضيف فى قرية «أولاد حمام» - التى تقع بالقرب من شاطيء بحيرة المنزلة، التابعة لمحافظة دمياط سنة ١٩١٠ - لأبوين فرحاً به فرحاً كبيراً لأنهام رزقاً ولدين قبله، لكن الموت اختطفها سريعاً. «ولعل ذلك ما جعل أمه تبالغ فى رعايتها له، وعطفها عليه عطفاً لم يبرح ذاكرته يوماً»^(١)، وكان أبوه الشيخ عبد السلام ضيف «قد أتم مرحلة التعليم الأزهرى فى دمياط، لكنه عزف عن أن يتقلد وظيفة من وظائف رجال الدين، فعاد إلى قريته قبيل اقترانه مكتفياً بمزرعة صغيرة (ورثها عن أبيه) تعوله هو وأسرته. وكان (الطفل) يرى أباه كل صباح يقرأ شيئاً من كتاب الله، وبعض الأوراد فى كتاب «دلائل الخيرات». وكان الأب سمح النفس محبوباً من أهل القرية لا لدروسه الدينية فحسب، ولكن أيضاً لسعيه لهم، بقدر ما يستطيع فى قضاء مصالحهم»^(٢).

(١) شوقى ضيف: معنى، ط. دار المعارف، ١٩٨١، ص ١٣.

(٢) المصدر السابق ص ١٤.

وسط جمال الطبيعة وُسُر الأسرة، نشأ «أحمد شوقي» في جوٍّ يحترم تقاليد الريف، ويقَدِّس المشاعر الدينية، وقبل أن أستطرد في تصوير حياة أستاذنا الجليل أتوقف عند حادثة فقد عينه اليسرى، حيث «فقد عينه وهو في المهدي، فلم يذهب به أبوه إلى طبيب عيون، إذ لم يكن في دمياط طبيب عيون، فذهب به إلى طبيب، كان يذهب إليه كثيرون من أهل القرية لفحص جميع أمراضهم، وكان على هذا الطبيب - حين رأى عين الصبيِّ الرمداء أو المريضة، وأن سحابة هبطت عليها - أن ينصح أباه باستشارة طبيب عيون، لكنه بدلاً من ذلك أجرى للصبي عملية في عينه، وظن الأب أنها نجحت وهي لم تنجح، فقد ظلت السحابة تحجب نظر العين، وفقد الصبي عينه اليسرى إلا بصيصاً ضئيلاً»^(١).

وقد أدت هذه الحادثة إلى ضعف إحدى عينيه وهو صبي في المهدي.. ومع ذلك فقد واصل رحلة علمية شاقة، تنوء بإنجازها أمة من الناس، وأشهدُ أني خيَّرت أستاذي وعاشرته حوالى ثلث قرن، لكنني لم ألحظ على عينه هذه الملاحظة إلى أن قرأت عنها في سيرته، وكان هذا سبباً يضاعف من احترام الرجل، ويزيد من الإعجاب بصبره ومثابرته.

وقد التحق في السادسة من عمره بالمدرسة «الأولية» بالقرية «وبينا كان يخطو إلى التاسعة ترك أبوه القرية واتخذ دمياط دار مقام له، وكانت أمنية أبويه أن يصبح «شوقي» شيخاً، وكانا يرددان على سماعه أنها وهباه للعلم، وكلمة العلم عندهما إنما تعني العلم الديني، الذي يحمله في صدورهم شيوخ الأزهر الشريف، ولذلك لم يتردد أبوه في أن يدخله كتاباً يحفظ فيه القرآن الكريم»^(٢).

وبعد أن حفظ القرآن الكريم على «مقرئ» جامع البحر» بدمياط.. التحق الصبي بالمعهد الديني سنة ١٩٢٠، وقد وصف صاحب السيرة حياته بتفصيل واضح في كتاب «معي» خلال هذه المرحلة، حيث بدأ يقرأ الصحف اليومية، ويتابع أخبار السياسة والأدب، وبدأ يتعرّف - من خلال الصحف - على طه حسين، ومحمد حسين هيكل، وعباس محمود العقاد، ومصطفى صادق الرافعي، وعلى عبد الرازق. وما يلفت النظر - وهو لا يزال تلميذاً في معهد دمياط الابتدائي - أنه ألّف كتاباً في النحو، يُعدُّ تلخيصاً لكتاب «قطر الندى» لابن هشام المصري، وربما كان هذا الكتاب هو الذي ألقى في وعي الفتى مبكراً حاجة النحو الخاص بالناشئة إلى التيسير والتبسيط، مما جعله فيما بعد ينشط للوفاء بهذه الحاجة^(٣)، ومن المعروف أن أستاذنا شوقي ضيف برغم تخصصه في مجال الدراسات الأدبية فقد اهتم بالتأليف في النحو أيضاً، حيث

(٣) المصدر السابق ص ٥٩.

(١) المصدر السابق ص ٢٩.

(٢) معي ص ٤٠.

ألف فيه: أربعة كتب مهمة هي: الرّد على النحاة - المدارس النحوية - تجديد النحو - تيسير النحو قديماً وحديثاً مع نهج تجديده.

(٢)

وفي صيف ١٩٢٦ أنهى دراسته الابتدائية بدمياط، ثم انتقل إلى معهد الزقازيق الثانوي، ليكمل دراسته الأزهرية. وكانت هذه أول غربة له بعيداً عن أبويه وأسرته... ومن عجب أن حياء الرجل لا يفارقه حتى وهو يكتب سيرته، لذلك نجده بدلاً من أن يعبر عن مشاعر الغربة في الزقازيق، يمضى ليحدثنا عن أمور سياسية وثقافية عامة، مثل الحديث عن أزمة كتاب «في الشعر الجاهلي» لطف حسين (١٩٢٦)، ومبايعة أحمد شوقي (١٩٢٧) بإمارة الشعر، واستقالة وزارة عدلي يكن سنة (١٩٢٧).. ثم وفاة سعد زغلول، ثم وضع حجر الأساس للجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) في فبراير (١٩٢٨)، وهنا أود أن أشير إلى سمة مهمة من سمات ذلك الرجل العظيم.. وهي الحياء الشديد، المقترن بعفة القلب واليد واللسان، لذلك لم يشترك - طوال عمره - في أية خصومة، ولم يتدخل في أية عداوة، ولم يسع - أبداً - بنميمه، ولم تتطرق إليه يوماً ريبة، وقد رأيتُ خصوماتٍ وخلافاتٍ كثيرة، كان الرجل على مرمى حجر منها، لكنه ظل محافظاً على حياده المهذب، يشكو إليه هذا أو ذاك من المتخاصمين، فلا ينقل كلمة ولا يشعل فتنة، وإنما يسعى إلى الصلح والإصلاح ما استطاع إليها سبيلاً، لذلك ظلّ الأستاذ الإنسان محيذاً وموضع ثقة كل زملائه وتلاميذه، وكان في رأيه لا يصدر عن هوى، وفي مسيرته لم يحاول قط أن يأخذ حقاً ليس له، يؤكد ذلك أيضاً أني درستُ الأدب العربي القديم على يديه طوال ثلاث سنوات، لم يتخلف فيها يوماً، ولم يفلت منه زمام الدرس، فيحكى طرفه أو نادرة أو يستطرد ليتحدث عن ذاته أو بعض مواقف حياته.

وبعد أن أنهى تعليمه في معهد الزقازيق الثانوي فكّر في الالتحاق بدار العلوم، وترك الطريق الذي اختاره أبواه - طريق التعليم الديني في الأزهر، وكانت لدار العلوم مدرسة ثانوية بالقاهرة تُسمّى «التجهيزية»، التي تعدّ الطلاب للالتحاق بها، وكان ذلك في العام الدراسي ١٩٢٨/١٩٢٩، ومنذ ذلك العام ترك الزيّ الأزهرى إلى الزي الأفرنجى، وهذا التحول في الزي رمزٌ لتحولات فكرية وعلمية في حياته، وكان ذلك إرهاباً لتحوله من التعليم الأزهرى القديم إلى التعليم الجامعي الحديث في كلية الآداب، وقبيل آخر العام الدراسي الثاني والأخير في «التجهيزية» سنة ١٩٣٠، علم أن «كلية الآداب ستفتح أبواب قسم اللغة العربية لقبول طائفة من خريجي «التجهيزية»، وطائفة من حملة الثانوية الأزهرية ليكملوا دراستهم فيه، إذ رأى طه حسين - عميد الكلية - وزملاؤه أن يُتيحوا لمجموعة من حفظوا القرآن الكريم

واستظفروه في صباحهم، ثم درسوا العلوم الدينية وعلوم العربية في شيء من التوسع أن يتابعوا الدراسة في القسم»^(١).

(٣)

وفي العام الدراسي ١٩٣٠/١٩٣١ التحق بالسنة الأولى بقسم اللغة العربية في كلية آداب القاهرة، وبدأ يدرس بجوار علوم العربية: الإنجليزية (لغة أجنبية أولى) والفرنسية (لغة ثانية)، وكان يدرّسها مدرسون أجانب من مدرسي أقسام اللغات الأجنبية بالكلية، «وكان تعلّم الإنجليزية أسهل عليه من تعلم الفرنسية لصعوبة نبراتها وكثرة الحروف الصامتة في كلماتها». وقد تتلمذ - في كلية الآداب - على أيدي مجموعة من الأساتذة الأفاضل الذين كانوا يدرّسون في ذلكم القسم العريق - قسم اللغة العربية - وهم: دكتور طه حسين - الأستاذ أحمد أمين - الأستاذ إبراهيم مصطفى - الشيخ أمين الخولي - الشيخ أحمد الإسكندري - دكتور عبد الوهاب عزام.

وقد نشر - في مجلة «الرسالة» سنة ١٩٣٤ - أول مقال له حول «الوضوح والغموض في الشعر»...، وهكذا بدأ العالم الشاب يخطو أولى خطوات مسيرته العلمية عن طريق بعض المقالات، التي كان ينشرها في مجلة «الرسالة»، وكان يرأس تحريرها حينئذ أستاذه أحمد أمين، وحول ذلك يقول «وكان عجب الفتى شديداً حين عاد إلى هذه المقالات في سن متأخرة، ليرى بواكير كتاباته، إذ رآها بنفس الصورة التي يكتب بها حين علت سنّه: صورة الأسلوب الرصين، الذي يعني صاحبه فيه باختيار الألفاظ، وحسن موقعها في الأسماع، مع اهتمام من حين إلى حين بالصور والأخيلة، يريد أن يجعلها أسلوباً سائغاً. وكان يظن أن رصانه أسلوبه أتمته - بمرّ الزمن - من قراءاته الكثيرة فيما بعد للجاحظ، وإعجابه بروعة أسلوبه، ويبدو حقاً ما قاله بعض النقاد الفرنسيين من أن الأسلوب هو الشخص، وأنه يوجد معه حين يمسك بالقلم حتى الأنفاس الأخيرة»^(٢).

وهكذا يضع ذلك الأستاذ الجليل أيدينا على سمة من أهم سماته الأسلوبية، وهي العناية بجمال التركيب اللغوي. إن الدراسة الأدبية غير الأدب ذاته، ومع ذلك ينبغي أن يكون دارس الأدب، وناقده متأثراً إلى حدّ كبير بطبيعة المادة الأدبية التي يدرّسها ويحلل عناصرها. وهذه الخاصية الأسلوبية نلمسها عند كل من تصدّى لدراسة الظاهرة الأدبية، منذ محمد بن سلام الجُمجُمي وانتهاءً بظه حسين، والتدليل على هذه السمة عند شوقي ضيف قد يحتاج إلى دراسة

(٢) معى ص ١١٠.

(١) كتاب «معى» ص ١٠٢.

خاصة، ومع ذلك نكتفى للتدليل عليها بهذه الفقرة من كتابه «التطور والتجديد في الشعر الأموي» الذي يعدّ من أهم دراساته الأدبية، وقد صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٥١، حيث يقول محملاً طبيعة «النقائض الشعرية» بين جرير والفرزدق: «ليست النقائض إذن أهاجى بالمعنى القديم، الذي كان يفهمه العرب في الجاهلية للهجاء، وإنما هي مناظرات أدبية أوجدتها ظروف عقلية، وأخرى اجتماعية لعصر بنى أمية، ولعلّ من الطريف أنها اقترنت عند جرير والفرزدق بمسألة شكلية نلاحظها في مناظراتنا الحديثة، فنحن إذا تساءلنا أين كان يقف جرير في مناظراته مع الفرزدق، كان الجواب الطبيعي أنه يقف في صفوف قومه تميم، فإن أبي تميم كان عليه أن لا يقف في صفوف خصومها، ولكن الذي حدث فعلاً أن جريراً لم يقف دائماً في صفوف تميم، ولا في صفوف أنصارها ممن كانت تعاهدهم في الجاهلية والإسلام، مثل قبيلة كلب، وإنما وقف في الصفوف المقابلة مع خصومها وأعدائها: صفوف قيس وفروعها وغصونها، وطبعاً كان ينصر قومه كُليئياً أمام عشيرة الفرزدق مجاشع، غير أنه كان يدافع أيضاً عن قيس ضد دفاع الفرزدق عن تميم، بالضبط كما يقف المناظر في عصرنا الحديث، ليدافع عن وجهة نظر معينة في موضوع من الموضوعات، وليس من الضروري أن يكون مؤمناً بها، بل قد يكون من خصومها، ويأتي به من أعدوا المناظرة للإغراب على الناس وجمهور النظارة.

وعلى هذا النمط جلبت قيس جريراً ليذود عنها أمام الفرزدق وقيم، فتمت بذلك صورة بعض مناظراتنا الحديثة، حين يدخل شخص في مناظرة وهو غير مقتنع بفكرة من الأفكار، فيوضع للدفاع عنها، وبذلك تصبح المسألة لعبة عقلية لا أقل ولا أكثر، يُراد بها تسلية السامعين، والمران على الجدل والحوار والمسائل أيّاً كان الوضع وأياً كانت الغاية.

ألسنا إذن في نقائض جرير والفرزدق بإزاء مناظرات أدبية حقيقية؟ فهذا جرير يقف في المريد، ليدافع عن قيس، وما عهدنا في الجاهلية ولا في الإسلام شخصاً يتنازل هذا التنازل عن قبيلته، ويلحق بقبيلة أخرى يتعصب لها، ويتشيع لأهلها وأبنائها على ما يتشيع ويتعصب جرير لقيس أعداء تميم في الجاهلية والإسلام»^(١).

وعلى هذا النحو من إشراق العبارة ووضوح المنطق وجلاء الفكرة، كان أستاذنا يكتب دراساته، ويعرض أفكاره، ويحلل الظواهر الأدبية التي يكتب عنها.

وقد أمضى الطالب شوقي ضيف في قسم اللغة العربية أربع سنوات (١٩٣١-١٩٣٥)، كان خلالها مثال الطالب الجاد الملتزم، وقد لفت نظر أساتذته مع اختلاف تخصصاتهم ومدارسهم الفكرية، واتجاهاتهم النقدية ومساهماتهم في حركة المجتمع، وهم: طه حسين، وأحمد أمين،

(١) شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي.

ط. دار المعارف - القاهرة، السابعة، ١٩٨١، ص ١٨٧.

ومصطفى عبد الرازق، وإبراهيم مصطفى، وأمين الخولي، وأحمد الإسكندري، وعبد الوهاب عزّام. كما أظهر تفوقاً في دراسة المواد غير التخصصية وفي دراسة اللغات الأجنبية، لذلك صار أول دفعته في التخرج، ونال شهادة الليسانس بامتياز سنة ١٩٣٥.

(٤)

وقد عُيّن بعد تخرجه في وظيفة «محرر» بمجمع اللغة العربية، وفي سنة (١٩٣٦) عُيّن معيداً بالقسم، حيث «كان طه حسين قد انتخب معيداً لكلية الآداب، ورأى أن تأخذ الكلية بنظام المعيدين لأول مرة في تاريخها الجامعي»^(١).

ومنذ ذلك التاريخ (١٩٣٦) لا يزال الرجل - أطال الله عمره - ينهض بمهمة التدريس في قسم اللغة العربية، وفي سنة ١٩٣٩ نال درجة الماجستير، وكان موضوعها «النقد الأدبي في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني»، وساعده هذا الموضوع الخصب على أن يُسيطر - منذ وقت مبكر في حياته الجامعية - بقوة واتساع على المادة الأدبية، والنقدية الخاصة بأعلام الشعر العربي القديم، منذ العصر الجاهلي حتى القرن الثالث الهجري، وقد أعدّ الرسالة بإشراف الأستاذ أحمد أمين. وفي تقديري أن أحمد أمين لعب دوراً كبيراً في تشكيل المنظور الفكري الذي يكتب من خلاله شوقي ضيف، فقد ذكرت من قبل أنه نشر مقالاته الأولى (سنة ١٩٣٤) في مجلة «الرسالة». ولا شك أن الأستاذ كان يراجعها لتلميذه، ويناقشه فيها، فقد كان أحمد أمين في ذلك الوقت، شخصية أدبية كبيرة لا في قسم اللغة العربية، وكلية الآداب، - التي تولّى عمادتها - فحسب، بل في الحياة الثقافية بصفة عامة، ثم جاءت التلمذة الحقيقية المباشرة من خلال رسالة الماجستير، وتنظُّنً ظناً لا يبعد عن اليقين أن أحمد أمين ترك بصمات فكرية واضحة في شوقي ضيف، والذي لا ريب فيه أن التلميذ حينما كتب سلسلة كتب «تاريخ الأدب» فيما بعد، كان يجارى أستاذه، الذي سبق أن كتب «تاريخ الإسلام» في: فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام، وربما كانت هذه الناحية - ناحية التأثير والتأثر بين أحمد أمين وشوقي ضيف حقيقة جديدة، تستحق وقفة خاصة عند من سوف يتوقفون فيما بعد، ليتحدثوا بالتفصيل عن منهج شوقي ضيف الأدبي، ومنظوره النقدي وتكوينه الفكري.

وفي سنة ١٩٤٢ نال درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الممتازة (الأولى)، وكان موضوعها «الفن ومذاهبه في الشعر العربي»، وكان المشرف عليه في هذه الرسالة الثانية (الدكتوراه) أستاذه الثاني الدكتور طه حسين الذي قال في مقدمة الرسالة:

(١) معي، ص ١٢٣.

«إني لسعيد بأن أقدم إلى القراء آية على أن في الشباب الجامعيين من يعملون مخلصين للعلم والدرس، وعلى أن في الشيوخ الوادعين للتأبين^(١)، من يمنحون هؤلاء الشباب ودهم وحبهم، سواء أعرَفهم أم لم يعرفهم، لأنهم يفكرون في مصر وفي ثقافتها، التي تُحْيِي ماضيها، وتفتح الطريق لمستقبلها الباسم أكثر مما يفكرون في أنفسهم.

وإذا كنت حريصاً على أن أقول شيئاً في هذه التقدمة فلأنما هو:

تسجيل الشكر الخالص للجامعة، التي أنتجت الدكتور شوقي، وللدكتور شوقي الذي أنتج هذه الرسالة...».

وفي سنة ١٩٤٥ تزوج من السيدة الفاضلة أم عاصم، وهي كريمة مُرَبِّ فاضل، وكانت تلميذته في كلية الآداب، وقد أنجبت له طفلين هما عاصم ورندة، اللذان صارا فيما بعد: الدكتور عاصم، الأستاذ في كلية هندسة القاهرة، والطبيبة الدكتورة رندة المدرسة في كلية طب القاهرة.

(٥)

لم تتوقف جهود الأستاذ المعلم - شوقي ضيف - عند التأليف والتحقيق فحسب، وإنما تتلمذ عليه مجموعة من الأساتذة يعدّون اليوم من أهم أعلام الدراسة الأدبية في كل الجامعات العربية... ومن أهمهم:

١ - في مصر: يوسف خليف - أحمد كمال زكي - سيد حنفي حسنين - النعمان القاضي - شوقي رياض - صابر أبو السعود - عبدالحكيم راضي - عبدالرازق أبو زيد - عبدالله التطاوي - مَيَّ يوسف خليف.

٢ - في فلسطين: إحسان عباس - محمد يوسف نجم.

٣ - في سوريا: أحمد راتب النفاخ - إحسان النصّ - مازن المبارك - شاکر الفحام - عصام قصبجي.

٤ - في الأردن: ناصر الدين الأسد - حسين عطوان - عصمة عبد الله غوشة.

٥ - في العراق: أحمد عبد الستار الجوارى - نوري هودى القيسى - محسن غياض.

٦ - في السودان: محمد فوزي مصطفى.

هؤلاء بعض الأعلام الذين واصلوا دراساتهم العليا، على يدي شوقي ضيف، ويصعب - إن

(١) المقصود عبد العزيز فهمي باشا، الذي كان عضواً في مجمع اللغة العربية، ونشر الكتاب على نفقته.

لم يكن يستحيل - حصر أولئك الذين جلسوا منه مجلس الطالب في قاعات الدرس، وأولئك الذين ناقش رسائلهم الجامعية، أو شارك في ترقياتهم العلمية، إن شوقى ضيف باختصار شديد: أستاذ معظم أساتذة الأدب واللغة في الوطن العربي كله، ولا نغالي إذا قلنا إن الذين فاتتهم التلمذة المباشرة على يديه الكريمتين، لم يفلتوا من التلمذ والدرس على كتبه ومؤلفاته، إنه باختصار متواضع أستاذ كل من يدرّس، أو يدرّس الأدب العربي، في كل مكان من أرجاء المعمورة، تتردد فيه أصداء لغة الضاد وآدابها.

(٦)

ظل شوقى ضيفاً حريصاً على وظيفته «عضو هيئة تدريس» في قسم اللغة العربية، بل إنه رفض سنة ١٩٥٣ أن ينتقل إلى وظيفة دبلوماسية في وزارة الخارجية، وأثر أن يبقى في عمله إلى أن صار أستاذاً سنة ١٩٥٦، والوظيفة الوحيدة التي قبلها، هي رئاسة مجلس القسم في المدة من سنة ١٩٦٨ إلى ١٩٧١، وإذا كان شوقى ضيفاً عزوفاً عن المناصب العامة، فإن مؤلفاته العلمية وسيرته العطرة، قد رشحاه ليكون عضواً في هيئات علمية كثيرة داخل مصر وخارجها.. ومن أهمها:

- عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- عضو المجالس القومية المتخصصة بالقاهرة.
- عضو المجمع العلمي المصري.
- عضو شرف في المجمع اللغوي الأردني.
- كذلك نال سيادته الجوائز العلمية التالية:
- جائزة مجمع اللغة العربية سنة ١٩٤٧.
- جائزة الدولة التشجيعية في الآداب سنة ١٩٥٥ عن كتاب «شوقى شاعر العصر الحديث».

- جائزة الدولة التقديرية في الآداب سنة ١٩٧٩.
- جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي سنة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

(٧)

قائمة ببليوجرافية.. تاريخية
بمؤلفات أ. د. شوقي ضيف

- ١ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي
ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٣.
- ٢ - الفن ومذاهبه في النثر العربي
ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٦.
- ٣ - تحقيق «الرد على النحاة»: لابن مضاء القرطبي
ط. دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧.
- ٤ - رسائل الصاحب بن عبّاد (بالاشتراك)
ط. دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧.
- ٥ - خريدة القصر للعماد الأصفهاني (قسم شعراء مصر)
ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١.
- ٦ - المغرب في حُلَى المغرب لابن سعيد الأندلسي
ج١ (تحقيق بالاشتراك)، ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٥١.
- ٧ - نقط العروس في تواريخ الخلفاء لابن حزم الأندلسي
نشر في: فصلية من مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٩٥١.
- ٨ - التطور والتجديد في الشعر الأموي
ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٢.
- ٩ - الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٢.
- ١٠ - المغرب في حلى المغرب لابن سعيد الأندلسي
ج٢ (تحقيق.. بالاشتراك)، ط. جامعة القاهرة، ١٩٥٣.
- ١١ - دراسات في الشعر العربي المعاصر
ط. مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٣.
- ١٢ - شوقي شاعر العصر الحديث
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٣.

- ١٣ - ابن زيدون (أعلام العرب)
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٤.
- ١٤ - النقد (فنون الأدب العربي)
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٤.
- ١٥ - المقامة (فنون الأدب العربي)
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٤.
- ١٦ - الرثاء (فنون الأدب العربي)
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥.
- ١٧ - المغرب في حلى المغرب لابن سعيد
ج ٢ (تحقيق بالاشتراك)، ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥.
- ١٨ - الترجمة الشخصية (فنون الأدب العربي)
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٦.
- ١٩ - الرحلات (فنون الأدب العربي)
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٦.
- ٢٠ - الأدب العربي المعاصر في مصر
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٧.
- ٢١ - تاريخ آداب اللغة العربية.. جرحى زيدان
(نشر وتعليق.. أربعة أجزاء) ط. دار الهلال، القاهرة، ١٩٥٧.
- ٢٢ - الفكاهة في مصر (اقرأ)
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٨.
- ٢٣ - العصر الجاهلي
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠.
- ٢٤ - في النقد الأدبي
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢.
- ٢٥ - العصر الإسلامي
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣.
- ٢٦ - مع العقاد (اقرأ)
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤.

- ٢٧ - البارودي رائد الشعر الحديث
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤.
- ٢٨ - البلاغة تطور وتاريخ
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥.
- ٢٩ - الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر (تحقيق)
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦.
- ٣٠ - العصر العباسي الأول
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦.
- ٣١ - المدارس النحوية
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨.
- ٣٢ - البطولة في الشعر العربي (اقرأ)
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩.
- ٣٣ - فصول في الشعر ونقده
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١.
- ٣٤ - سورة الرحمن وسور قصار (عرض ودراسة)
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١.
- ٣٥ - البحث الأدبي: طبيعته ومناهجه وأصوله ومصادره
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢.
- ٣٦ - العصر العباسي الثاني
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣.
- ٣٧ - الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧.
- ٣٨ - عصر الدول والإمارات ج١ (الجزيرة العربية - العراق - إيران)
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠.
- ٣٩ - معى (سلسلة اقرأ)
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١.
- ٤٠ - تجديد النحو
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.

- ٤١ - عصر الدول والإمارات ج٢ (مصر والشام)
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤.
- ٤٢ - مجمع اللغة العربية في خمسين عاماً
ط. مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٨٤.
- ٤٣ - تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده
ط. دار المعارف ١٩٨٦.
- ٤٤ - في التراث والشعر واللغة (تحقيق)
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧.
- ٤٥ - معى، ج٢
ط دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٨
- ٤٦ - عصر الدول والإمارات ج٣: (الأندلس)
ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩.
- ٤٧ - عصر الدول والإمارات ج٤: (ليبيا - تونس - صقلية)
ط دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٢

(٨)

يعدّ شوقي ضيف أكثر علماء جيله عطاءً وإنتاجاً، ومؤلفاته حتى الآن (١٩٩٢) سبعة وأربعون كتاباً بين مؤلف ومحقق، لأنه عاش طوال عمره - أمدّ الله فيه - مع المكتبة ومن أجل الكتابة، ولم يتخذ لنفسه صديقاً سوى الكتاب، وإذا ما حاولنا أن نحدد الإطار العام لجهوده في مجال الدراسة والبحث والتحقيق، فيمكن أن نُصنّفها في أربعة مجالات كبرى، هي:

- الدراسة الأدبية.
- الدراسة البلاغية والنقدية.
- الدراسة النحوية.
- الدراسة الإسلامية وتحقيق التراث.

أولاً: مجال الدراسة الأدبية:

كان شوقي ضيف وقياً - بدرجة رفيعة - لتخصصه الأول.. وهو دراسة الأدب العربي القديم، وإن كانت جهوده في مجال الدرس الأدبي قد تجاوزت القديم إلى الوسيط والحديث، بدرجة يمكن معها القول إنه درس كل مراحل تاريخ الأدب العربي على امتداد عصوره وتعدّد أماكته وأعلامه، والكتب التي صدرت له في هذا المجال هي:

- ١ - التطور والتجديد في الشعر الأموي، ١٩٥٢.
- ٢ - الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، ١٩٥٢.
- ٣ - دراسات في الشعر المعاصر، ١٩٥٣.
- ٤ - شوقي شاعر العصر الحديث، ١٩٥٣.
- ٥ - ابن زيدون، ١٩٥٤.
- ٦ - الأدب العربي المعاصر في مصر، ١٩٥٧.
- ٧ - الفكاهة في مصر، ١٩٥٨.
- ٨ - مع العقاد، ١٩٦٤.
- ٩ - البارودي رائد الشعر الحديث، ١٩٦٤.
- ١٠ - البطولة في الشعر العربي، ١٩٦٩.
- ١١ - العصر الجاهلي، ١٩٦٠.
- ١٢ - العصر الإسلامي، ١٩٦٣.
- ١٣ - العصر العباسي الأول، ١٩٦٦.
- ١٤ - فصول في الشعر ونقده، ١٩٧١.
- ١٥ - العصر العباسي الثاني، ١٩٧٣.
- ١٦ - الشعر وطوايعه الشعبية على مرّ العصور، ١٩٧٧.
- ١٧ - عصر الدول والإمارات ج١، ١٩٨٠.
(الجزيرة العربية - العراق - إيران).
- ١٨ - عصر الدول والإمارات ج٢
(مصر - الشام)، ١٩٨٤.
- ١٩ - عصر الدول والإمارات ج٣
(الأندلس)، ١٩٨٩.
- ٢٠ - عصر الدول والإمارات (ج٤)
(ليبيا - تونس - صقلية) ١٩٩٢.

ومن خلال هذه الكتب نستطيع القول: إن الأستاذ المعلم قد رسم (خريطة) أدبية شاملة للأدب العربي، منذ الميلاذ والنشأة حتى المرحلة المعاصرة، مروراً بكل عصور الأدب، سواء أكانت عصور ازدهار وقوة، مثل العصر الجاهلي، والإسلامي، والعباسي، أم مراحل ضعف وتفرّق في عصور الدول والإمارات في كل الأقطار العربية، بعد أن تقطعت أوصال الدولة وانفصلت أوطان الأمة.

وهو يصرّح - واعياً - بالهدف الجليل الذي كتب من أجله، هذه السلسلة المترابطة

الحلقات لتاريخ الأدب بقوله: « لا أبالغ إذا قلت إن تاريخ أدبنا العربي يفتقر إلى طائفة من الأجزاء الميسوطة، تبحث فيها عصوره من الجاهلية إلى عصرنا الحاضر، كما تبحث شخصياته الأدبية بحثاً مسهباً، بحيث ينكشف كل عصر انكشافاً تاماً، بجميع حدوده وبيئاته، وآثاره وما عمل فيها من مؤثرات، ثقافية وغير ثقافية، وبحيث تنكشف شخصيات الأدباء انكشافاً كاملاً بجميع ملامحها وقسماتها النفسية والاجتماعية والفنية.

وقد حاولت أن أنهض بهذا العبء، وأنا أعلم ثقل المتونة فيه، فإن كثيراً من الآثار الأدبية القيمة لا يزال مخطوطاً لما ينشر، وكثيراً مما نشر في حاجة إلى أن يُعاد نشره نشرًا علمياً، وهناك بيئات أدبية يغمرها غير قليل من الظلام: إما لقلّة ما بين أيدينا من تراثها الأدبي، وإما لأن الباحثين لم يكشفوا دروبها ومناجها كشفًا كافيًا. يُضاف إلى ذلك أن تحليل آثار الأدباء وتقويمها ليس عملاً سهلاً، لكثرة ما يداخلها من عناصر الحياة والفن المتشابكة، ولأنها تتألف من معانٍ وأساليب جميلة، وهي لا تخضع خضوعاً مطلقاً لقواعد العلم وقوانينه، حقاً تخضع للطريقة العلمية، ولكن باستمرار تظل فيها جوانب خاضعة للذوق، ونفاذ البصيرة والإحساس المرهف، وذلك كله مما يضاعف الجهد على من يريد، تأريخ أدبنا العربي، تأريخاً مفصلاً دقيقاً على اختلاف عصوره وتفاوت بيئاته، غير أنه يضاعف في الوقت نفسه لذته فيه، إذ يرى أمنيته في إتقان عمله بعيدة عسيرة، لا يمكنه بلوغها إلاّ بشقّ النفس، فيجد ويلج، ويمضى في الجدّ والإلحاح، حتى يظفر بما يريد، مؤمناً بأنه لا يقول الكلمة الأخيرة فيما يبحثه، إذ البحث الأدبي لا يعرف الكلمة الأخيرة في مسألة من مسأله»^(١).

وقد أنجز عالم فذٌ ما وعد، وأكمل الدائرة، وأتم رسم الصورة العامة لأدبنا لعربي العريق - الذي يعد أطول الآداب الإنسانية عمراً وأشدها تلاحماً. ولكن الرجل - مثل كل العلماء العظام - وقليل ما هم - رغم ما بذل من جهد تنوء به عصبته من أولى العزم، لا يفارقه تواضع العالم وحرص الخبير، حين يؤكد أن ما كتبه ليس خاتمة المطاف أو فصل النهاية فيما قدم الأسلاف، ومعنى هذا أن العالم الحق، ليس من يزعم أنه قادر على إغلاق باب الاجتهاد، وإنما هو ذلك الذي يثير من الأفكار والآراء ما يفتح مجالات البحث، وينير دروب التأمل، وهو يؤكد هذا الرأي في نهاية الجزء الأول، من سلسلة كتب تاريخ الأدب العربي، بقوله:

« ومعنى ذلك أن هذا الجزء من تاريخ أدبنا العربي، الخاصّ بالعصر الجاهلي - والذي سنتلوه أجزاء أخرى، تتناول بقية عصور هذا التاريخ - لا أزعّم أنه يحمل إلى القراء الصورة الأخيرة

(١) شوقي ضيف: العصر الجاهلي.

ط دار المعارف - القاهرة، السابعة، ١٩٧٦، ص ٦.

هذا العصر، كما لا أزعم أن الأجزاء التالية ستحمل الصورة الأخيرة للعصور المتعاقبة، وإنما أزعم أن هذه الصورة هي التي استطعتُ رسمها، مع ما بذلت من جهد واصطنعت من نهج، وتحريت من دقة، وقد يأتي بعدى من يُعدل في جانب من جوانبها بما يهتدى إليه من حقائق أدبية غابت عني في بعض العصور، أو بعض البيئات والشخصيات الأدبية، وتلك طبيعة الأبحاث يكمل بعضها بعضاً ولا تزال في نحو مطرد (11)»^(١).

وحين نستعرض تلك الكتب الخاصة بالتأريخ للأدب العربي: قديمه وحديثه، ندرك أن الرجل قد توقف عند كل العصور والأقاليم، حتى تلك التي لم يكذب يتوقف عندها أحد من قيل، وأنا أشير هنا وأشيد - بصفة خاصة - بالأجزاء الأربعة، التي تدرس عصور أدب الدول، والإمارات في القرون الوسطى في: الجزيرة العربية، والعراق، وإيران، ومصر، والشام، وبلاد الأندلس، والمغرب العربي، ومعنى هذا أن شوقي ضيف يعد أوفى أستاذ لتخصصه العلمى، حيث كان يشغل وظيفة «أستاذ الأدب العربي القديم»، ولكنه وسّع جهوده ومدّ نشاطه، لكي يدرس كل عصور الأدب، وقد توقف أحياناً عند بعض الظواهر الشعبية في الأدب العربي، وظهر هذا في كتبه: الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور - الفكاهة في مصر - عصر الدول والإمارات.

(٩)

ثانياً: مجال الدراسة البلاغية والنقدية:

يشكل الدرس البلاغى والنقدى أهم أدوات البحث الأدبى، لذلك يمثل هذا الجانب المجال التالى، فى الأهمية لدراسة الأدب. وقد أصدر شوقى ضيف فى هذا المجال عدة كتب هى:

- ١ - النقد الأدبى فى كتاب الأغاني «مخطوط»، ١٩٣٩.
- ٢ - الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، ١٩٤٣.
- ٣ - الفن ومذاهبه فى النثر العربى، ١٩٤٦.
- ٤ - النقد، ١٩٥٤.
- ٥ - المقامة، ١٩٥٤.
- ٦ - الرثاء، ١٩٥٥.
- ٧ - الترجمة الشخصية، ١٩٥٦.

(١) العصر الجاهلى: ص ٦٠.

٨ - الرحلات، ١٩٥٦.

٩ - في النقد الأدبي، ١٩٦٢.

١٠ - البلاغة تطور وتاريخ، ١٩٦٥.

١١ - البحث الأدبي: طبيعته، مناهجه، أصوله، مصادره، ١٩٧٢.

وهذه الموضوعات البلاغية والنقدية المتنوعة، تؤكد - بوضوح - أن شوقي ضيف حاول من خلال هذه الكتب أن يعرض تاريخ البلاغة والنقد، وأن يتوقف عند بعض موضوعات خاصة في الأدب العربي، مثل الترجمة الشخصية والرحلات والمقامة والثناء، كل هذا ليكمل جانباً من جوانب دراسة الأدب، وهو الجانب الخاص بالبلاغة والنقد وبعض فنون الأدب العربي، والكاتب يؤكد الرابطة الوثيقة التي تربط الأدب بهذه الدراسات، فيذكر في مقدمة كتابه «البلاغة.. تطور وتاريخ»:

«ولم تكن غايتي أن أصور هذا التاريخ لبلاغتنا فحسب، بل أيضاً أن أصور الترابط الوثيق بينها وبين أدبنا في تطورهما، حتى انتهيا إلى الجمود والتعقيد، والجفاف والتكرار الممل، وأن أرسم في تضاعيف هذا التطور الوشائج الواصلة بين كل بلاغى وسابقه ولا حقه، بحيث تتضح معالم هذا التطور اتضاحاً تاماً، وقد وقفت في الحائمة أصور الأسباب التي جعلت أسلافنا لا يهتمون في البلاغة بشيء وراء الكلمة والجملة والصورة، ذاهباً إلى أنه ينبغي في تشكيل بلاغتنا الحديثة أن نعنى ببيان الأساليب الأدبية المتفاوتة، وفنون الأدب المختلفة، حتى نلائم بين بلاغتنا وأدبنا الحديث وأساليبه وفنونه، مع الحرص على الانتفاع بتراث أسلافنا البلاغى القيم الذى، أودعوا فيه خصائص لغتنا الأدبية، ومقوماتها البيانية والبلاغية»^(١).

بهذه النظرة الشمولية، يكتب شوقي ضيف عن البلاغة والنقد، واعياً بالعلاقة الوثقى التي تربطها بالأدب، ذلك أن الأدب والنقد وجهان لعملة واحدة، ويرتبط كل منهما بالآخر ارتباط العلة بالمعلول، وهذا هو سر عنايته بدراسة النقد والبلاغة.

(١٠)

ثالثاً: الدراسة النحوية:

ذكرنا - في أثناء الحديث عن سيرة شوقي ضيف - كيف أنه توقف وهو طالب عند دروس النحو، وكيف أنه حاول أن يقدم تلخيصاً مختصراً بعيداً عن الحواشى والاستطرادات، عندما

(١) شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ. ط. دار المعارف - القاهرة، الخامسة، ١٩٨١، ص ٧.

حاول وهو في معهد دمياط الابتدائي أن يلخص بعض كتب «ابن هشام» في النحو، وقد صدرت له في مجال دراسة النحو العربي أربعة كتب مهمة هي:

- ١ - تحقيق الردّ على النحاة لابن مضاء القرطبي، ١٩٤٧.
- ٢ - المدارس النحوية، ١٩٦٨.
- ٣ - تجديد النحو، ١٩٨٢.
- ٤ - تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده، ١٩٨٦*.

وإذا كان شوقي ضيف في كتاب «المدارس النحوية» حريصاً على الجانب التاريخي الموسوعي الذي يهتم به في كل دراساته، فإن المؤلفات الثلاثة الأخرى تؤكد بوضوح حرصه منذ وقت مبكر، على أن يقدم صياغة جديدة للنحو العربي، تيسّر فهمه وتعليمه، إيماناً بأن فهم اللغة: قراءة وكتابة، هو الخطوة الأولى لدراسة الأدب وتحقيق وجود الإنسان العربي، وهو يؤكد هذه الرؤية في مقدمة كتابه الأخير في هذا المجال قائلاً: «جميع البلاد العربية تشكو مرّاً الشكوى من أن الناشئة فيها لا تحسن النحو، أو بعبارة أخرى لا تحسن النطق بالعربية نطقاً سليماً، وكأنما أصيبت ألسنتها بشيء من الاعوجاج والانحراف، جعلها لا تستطيع أداء العربية أداءً صحيحاً. ونخطيء خطأ كبيراً إذا ظننا أن شيئاً من ذلك أصاب ألسنة الناشئة في بلداننا العربية، جعلها تعجز عن النطق السديد بالعربية، إنما مرجع هذا العجز أو القصور إلى النحو الذي يقدّم إليها، والذي يرهقها بكثرة أبوابه وتفريعاته وأبنيته وصيغه الافتراضية التي لا تجرى في الاستعمال اللغوي. وهو - مع ذلك - يغفل شطراً كبيراً من تصاريف العربية وأدواتها وصياغاتها، مما يجعل الناشئة لا تتبين كثيراً من أوضاع اللغة، واستعمالاتها الدقيقة.

والأمران جميعاً من قصور النحو التعليمي، الذي يقدم للناشئة عن الإحاطة بصيغ العربية وأوضاعها، ومن التوسع في صيغ واستعمالات افتراضية يحفزان الهمم إلى تيسير النحو وتبسيطه، ويتنادى كثيرون: دعونا من هذا التبسيط والتيسير، كأن من يبغون ذلك، يريدون إداً من الأمر أو نُكراً، وهم إنما يبغون الخير كل الخير، حتى تحسن الناشئة نطق العربية لغة القرآن الكريم، الذي أتاح لها عزة فوق عزة، وسلطاناً على النفوس لا يماثله سلطان، فضلاً عن أنها لغة العرب القومية التي لا يتم للعرب بدونها مجد، أو كيان»^(١).

وعلى هذا يكون شوقي ضيف وفاقاً لتخصصه العلمي في دراسة الأدب، وفي الوقت نفسه يكون حريصاً على دراسة المواد المعينة له، سواء اتصلت بالنقد والبلاغة، أو باللغة والنحو.

(*) صدر له فيما بعد كتاب: تيسيرات لغوية - ١٩٨٩.

(١) شوقي ضيف: تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً. ط. دار المعارف، القاهرة، الأول، ١٩٨٦، ص ٣.

رابعاً: الدراسة الإسلامية وتحقيق التراث:

المورد العذب وفير العطاء، وهناك مجالات متنوعة في جهود شوقي ضيف أثرتنا أن نجملها في هذا المجال الكبير... الذي يشمل دراساته الإسلامية وجهوده العلمية في تحقيق بعض كتب التراث الإسلامي، والأدبي، والتاريخي، والكتب التي صدرت له في هذا المجال هي:

- ١ - الردّ على النحاة لابن مضاء القرطبي، ١٩٤٧.
- ٢ - رسائل الصاحب بن عباد (بالاشتراك)، ١٩٤٧.
- ٣ - خطط العروس في تواريخ الخلفاء لابن حزم، ١٩٥١.
- ٤ - خريدة القصر للعماد الأصفهاني (بالاشتراك)، ١٩٥١.
- ٥ - المغرب في حلى المغرب لابن سعيد (بالاشتراك)، (قسم شعراء مصر)، ١٩٥٣.
- ٦ - الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر، ١٩٦٦.
- ٧ - سورة الرحمن وسورة قصار (عرض ودراسة)، ١٩٧١.
- ٨ - السبعة في القراءات لابن مجاهد، ١٩٧٢.
- ٩ - في التراث والشعر واللغة، ١٩٨٧.

ويؤكد هذا المجال الأخير من جهود شوقي ضيف، كيف أنه يعد بحق عالماً موسوعياً، واسع العطاء متنوع الجهد، وبرغم الوفاء العظيم لتخصصه الأول وهو «دراسة الأدب العربي القديم»، فإنه أسهم في دراسة كل عصور ذلك الأدب، كما مدّ نشاطاته لكل ما يتصل به عن قرب - مثل البلاغة، والنقد، واللغة - أو بُعد - مثل الدراسات القرآنية، وتحقيق بعض الكتب الأدبية، والتاريخية، والدينية.

نصف قرن أو يزيد قضاه ذلك العالم الراهب في محراب البحث والدراسة، لم يترك القلم لحظة، ولم يفادر مجالاً من مجالات التراث العربي الإسلامي الرحبة، إلا وحاول أن يسهم فيها بنصيب وافر.

إن شوقي ضيف يذكرني إلى حد كبير بعالم مصري جليل ظهر في العصور الوسطى، وهو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩ - ٩١١هـ)، الذي ظل طوال عمره مشتغلاً بالتدريس والفتيا متفرغاً للعلم والتأليف، وأستاذنا شوقي ضيف مثله عفا كريم حلیم، صالح تقى ورع، زاهد في متاع الدنيا، ووظائف الدولة، لذلك لا تغالي حين تقول إن شوقي ضيف هو «سيوطي العصر الحديث».

هذه هي الخطوط العامة لسيرة العالم ومسيرة الإنسان، الأستاذ الجليل الدكتور شوقي ضيف، لا أحسب أنى وفيتها قدر ما تستحق من البيان والتفصيل، لأن سيرته العطرة ومسيرته العلمية الكبيرة تحتاج إلى دراسات خاصة، تتوقف وقفة متأنية مفصلة، عند كل مجال على حدة من المجالات الأربعة العامة، التي أشرت إليها من قبل، وحسبى أنى حاولت أن أقدم رؤية شاملة للسيرة والمسيرة، أملاً أن أفتح المجال، لمن بعدى لكى يكملوا الصورة ويواصلوا الدراسة.

إن شوقى ضيف - أستاذى بقدر ما هو أستاذ لأجيال عدة من الدارسين، وأساتذة الجامعات العربية، وله عليهم، كما له على أفضال لا تعد ولا تحصى، والأمل أن تتوالى الدراسات والأبحاث، التى تقوم جهد ذلك العالم الجليل والمرتب الفاضل والإنسان الكامل، الذى عندما أذكره أتذكر أبياتاً سمعتها لأول مرة منه، وكانت - ولا تزال - تنطبق عليه، وهى لزهير بن أبى سلمى، يقول فيها:

وأبيضَ فياضٍ يدهُ غمامةٌ	على معتفيه ما تغبُّ نوافلهُ
تراه إذا ما جئته متهلاً	كأنك تُعطيه الذى أنت سائله
إذا ما أتوا أبوابه قال مرحباً	لجُوا البابَ حتى يأتى الجوعَ قاتله
ولو لم يكن فى كفه غيرُ نفسه	لجاد بها، فليتيق الله سائله

وبعد.. فإن هذه الدراسة المختصرة شمعة صغيرة، تحاول أن تضىء بحراً شاملاً من العطاء والتأليف، وعلماً شاعخاً من أعلام عصرنا الحديث.. إنه العالم العظيم، الذى أمد المكتبة العربية بمؤلفاتٍ، تغطى كل مراحل الأدب العربى فى القديم والحديث، كما تمتد لتشمل كثيراً من الزوايا البحثية التى تتصل بالأدب العربى من قريب أو بعيد.

إن شوقى ضيف مدرسة فى إهاب أستاذ، وأمة فى جسد فرد.. أعطى ولا يزال يُعطى حتى اليوم علماً وفضلاً، لكل من يلوذ به أو يلجأ إليه. وشوقى ضيف - كما يعلم كل من تتلمذ عليه أو عاصره - رجل عفيف نظيف، لم يشغل نفسه إلا بالعلم وبناء العلماء، ومن عجب أن قلبه الأبيض لم يعرف الحقد أو الضغينة، ولم يحاول يوماً أن يسيء حتى إلى من أساء إليه، ولم يطمع فى منصب، ولم يسع إلى وظيفة أو شهرة!!

هذه بعض سمات أستاذ الأساتذة وآخر العلماء العظام - في عصر صار العلم فيه غريبا حتى عند معظم أهله - أرجو أن تكون في سيرته الجليلة قدوة حسنة لمن يسرون في طريق العلم الصعب، الطويل سُلْمُهُ..!!.

أ. د. طه وادى

أستاذ الأدب والنقد الحديث

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب - جامعة القاهرة